فِي الطَّائفِ

اتَّجهَ الرسولُ ﷺ إلى شرقيِّ مكةَ، قاصدًا الطائفَ ليلتمسَ العونَ والمَنَعَةَ، فلمَّا وصلَها أبدَوْا له من العناد والإنكار لدعوته مَا يدلُّ على فساد طباعهم وعقائدهم، وإصرارهم علَى ضلالهم القديم.

قطعَ الرسولُ ﷺ عشرةَ أيام صابرًا محتسبًا علَّه يجدُ قلوبًا تلينُ لدعوته، وآذانًا تسمعُ نداءَه، ولكنَّ القومَ ظلُّوا في ضلالهم يعمَهُون، وقابلُوه بإصرار دائم على الإنكار، وزادُوا على ذلكَ بإيذائه فأسرعَ بالرحيل عنهُم قائلاً لهُم: «إذا أبيْتُم فاكتُموا عليَّ ذلكَ حتى لا يذاعَ النبأ في مكةَ»، فتندلعَ شماتَتُهم.

ولكنَّ أهلَ الطائف تجرَّدوا من أيسر مظاهر المروءة والرحمة، فأغرَوْا به سفهاءَهُم وعبيدَهُم، واجتمَعُوا له يشيِّعونَه بالسِّباب، ويقذفونَه بالحجارة، حتَّى سالَ الدَّمُ الشريفُ من قدَميْه ﷺ، فذهبَ إلى حائط[1] لعتبةَ وشيبة ابنَيْ ربيعةَ، وجلسَ إلى ظلِّ شجرة من عنب حتَّى اطمأنتْ أنفاسُه، فصعَّدَها للسماء طاهرةً مبرورةً هاتفًا من أعماقه:

(١) حائط: بستان.

«اللهمَّ إليكَ أشكُو ضَعْفَ قُوَّتي، وقلّةَ حيلتي، وهَواني علَى الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربُّ المستضعفينَ، وأنتَ ربِّي، إلَى مَن تكلُني، إلى بعيد يتجهَّمُني، أمْ إلَى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري، إنْ لمْ يكنْ بكَ غَضَبٌ عليَّ فَلا أبَالي، ولكنَّ عافيتَك أوسعُ لي، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلماتُ، وصلُحَ عليه أمرُ الدنيَا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك أو تُحلَّ عليَّ سَخَطَك، لكَ العُتْبَى حتَّى تَرضَى، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بكَ».

وفي هذه اللحظات تجيشُ العاطفةُ في قلب كلٍّ من عتبةَ وشيبةَ ابنَيْ ربيعةَ فإذا بهمَا يرسلانِ غلامَهما النصرانيَّ «عَدَّاسًا» يقطفُ عنبًا ويذهبُ به إلى الرسول ﷺ، فلمَّا وضعَ الرسولُ يدَه فيه قالَ: بسم الله. ثمَّ أكلَ. ونظرَ عدَّاسٌ قائلاً:

- هذَا كلامٌ لا يقولُه أهلُ هذه البلادِ.

فسألَهُ الرسولُ ﷺ:

- من أيِّ البلادِ أنتَ وما دينُك؟!

فقالَ:

- أنا نصرانيٌّ من (نينَوَى).

فقالَ الرسولُ ﷺ:

- أمِن قرية الرجل الصالح يونُسَ بنِ مَتَّى؟

قال له:

- وما يدريكَ ما يونُس؟

قالَ الرسولُ ﷺ:

- ذلكَ أخي كان نبيّا وأنا نبيٌّ.

فأكبَّ عداسٌ علَى يديْ رسول الله ﷺ ورجلَيْه يقبلُهُما. وكانَ ابنَا ربيعةَ عتبةَ وشيبةَ يراقبان ذلكَ، فقالَ أحدُهما للآخرِ:

أما غلامُكَ فقد أفسَدَه عليكَ.

فلمَّا جاءَ عداسٌ قالا له:

- ويحَكَ ما هذا؟!

فقالَ مشيرًا إلى الرسول ﷺ:

- ما في الأرض خيرٌ من هذا الرجل.

obeikandl.com